المنهج القرآني في الدعوة والإصلاح
ـ القرآن الكريم في مواجهة تحديات المرحلة ـ

د النذير بولمعالي/ د محمد زوقاي
جامعة المدية

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا خير الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإذا كان تاريخ الأمس البعيد هو تاريخ الوحي وهيمنته على العقل والعلم والواقع؛ وإذا كان العصر الحديث هو عصر تأليه العلم وسيادته على الإنسان والوحي والطبيعة فإن الحاضر والمستقبل في اعتقادي سيخط ويفرض نفسه عبر الانسان الحضاري الواعي المتخلق المتسلح بالوحي والأخلاق في الوقت ذاته؛ وعليه فإن الإسلام بكتابه (القرآن الكريم سنة نبيه ﷺ) هو المرشح لبناء هذا الإنسان وهو إنسان الحاضر والمستقبل؛ وأقصد هنا ـ بالإسلام ـ الإسلام النقي والأصيل البعيد عن الإفراط والتفريط؛ إنه الإسلام المحقق للوسطية والاعتدال.

لقد كان من قدر العالم العربي خاصة والعالم الإسلامي عامة أن خضع ردحا من الزمن تحت وطأة الإستعمار الأوربي البغيض والذي أراد إستعمار الأرض وغصب العرض واستعباد الخلق وسلخهم عن جلدتهم حتى كادوا لا يحسون بالألم، فما لجرح بميت إيلام كما قال الشاعر، وكاد يحالفه النجاح في مناسبات عديدة وأماكن مديدة من هذا الوطن العربي والإسلامي لولا أن إرادة الله سبقت وسلم أن أنجبت هذه البلاد العربية والبلاد الإسلامية رجالا في المغرب مثلما في المشرق، فانبروا لتأسيس عمل إصلاحي وفكري لأجل النهوض بهذه الأمة وتحرير الفرد العربي المسلم مما حاق به من ظلم وعبودية من جراء ما سلط عليه من طرف الإستدمار هنا وهناك في الجزائر وفي مصر وليبيا وتونس والمغرب وفلسطين وبلاد الشام... وكل البلاد العربية والإسلامية، ومحاولة إعادته إلى ثوبه وجلده الذي كاد ينسلخ منه سلخا(1).

إننا نجد من المسلمين من فعلوا بأنفسهم ما لم يفعله هذا المستدمر بهم فابتعدوا عن دينهم فصار غريبًا عليهم، أو على حد قول أحد الكتاب "الإسلام في هذا العالم الإسلامي غريب على الناس؛ كغربته يوم بدأ في جاهلية الجزيرة العربية، وهو فوق ذلك مكروه من كثيرين"(2).

غير أن هذا الرجوع برأيي لم يكن مضبوطا كما ينبغي وكما يجب، فكان الترقيع لما خلف المستدمر من باب سد الفراغ والرجوع للتدين دون تفكير وبشي من التزمت أحيانا، وهذا ما جعل المسلم ينشأ ويفكر تفكيرا تنفر منه أكثر مما يجذب اليه الاخرين، سواء من أبناء بلده من المسلمين أو من أهل الديار الأخرى من غير المسلمين لدعوتهم إلى هذا الدين، وبالتالي برأي قد ابتعد المسلم بهذا عن مبدأ الوسطية والاعتدال الذي كان ديدن العمود والركي الرئيسي قي دعوة محمد ﷺ والتي أمر بها من قبل ربه سبحانه وتعالى في العديد من الآيات الكريمات منها قوله تعالى﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ آل عمران: ١٥٩ ومنها أيضا قوله تعالى:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ النحل: ١٢٥ ، و الآيات كثيرة في هذا المعني؛ ولله در من شبه الداعي بهذه المواصفات المرجوة بأعظم كوكب وهو كوكب الشمس الوهاج فقال:

1- الشمس متحركة وليست مستقرة في مكان محدد أو إقليم خاص... وكذلك الداعي إلى الله ينبغي أن يكون كالشمس متحرك بين الناس ليبلغ دين الله.

2- الشمس تستمد نورها من الله وتنير به العالم كله... وكذلك الداعية إلى الله يستمد علمه من الله وينشره بين الناس اجمع.

3- الشمس ليس عندها عنصريه ولا حزبية بل تخرج على العالم كله... وكذلك الداعي إلى الله ينبغي أن لا يفرق بين الناس أسودهم وأبيضهم عربيهم وعجميهم بل هم سواسية عنده.

4- الشمس لا تأخذ أجراً من أحد على نورها الذي تنير به العالم... وكذلك الداعي إلى الله لا يأخذ أجرا على دعوته (لا أسئلكم عليه أجرا).

5- الشمس ليس لها إجازة رسمية ولا عطلة صيفية ولا راحة... وكذلك الداعية إلى الله ينبغي أن يوصل دعوته في كل الأحوال وتحت كل الظروف وأن لا يكل ولا يمل وكلما فرغ من عبادة نصب إلى أخرى (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب)(3).

6ـ إذا كسفت الشمس يكون هناك خوف ووجل من الناس بكسوفها... وكذلك إذا ترك الداعي إلى الله الدعوة أو انحرف بها إما إفراطا بتعصب ومغالاة أو بتفريط وتميع فهو خطر على الأمة الإسلامية.

لقد كان القرآن وما يزال معجزة المعجزات؛ ومهما اختلف الناس في طبيعة هذه المعجزة فإن القرآن الكريم يبقى كلام الله عز وجل الباقي والخالد خلود الدهر ؛ فكل المعجزات انتهى مفعولها بانتهاء أصحابها إلا هو فما زال شاهد صدق على صحة الدعوة والرسالة المحمدية وعظمتها(4).

لقد بدأت صفارات الإنذار في الغرب تنذر وتطلق صيحاتها من قبل مفكريهم أنفسهم مؤذنين بضربة قاسمة لهذه الحضارة ومكوناتها والتي انساقت وراء العلم وحده بعيدا عن الأخلاق؛ فتسبب في انهيارات قيمية وشلل اخلاقي تام وانتحارا روحيا كاد يطغى على البشرية كلها؛ ولا نريد أن نصبح في عالمنا الاسلامي ـ ونحن الذين كنا ذات مرة نريد تصدير حضارتنا وأفكارنا الخيرة للبشرية جمعاء ـ ثلت لا نريد أن نصبح كالرجل الغربي نفقد ثقتنا في مقوماتنا ونشكك في تاريخنا

بشكل من فضاعته أن غدا فيه التمرد سيد الموقف؛ ومن هذا التمرد نجد التمرد الإلحادي والذي يعبر عن احتجاج على القيم الدينية في الغرب وأحد رموزها وهي الكنيسة؛ والتي كادت أن تصدر لعالمنا العربي والإسلامي الذي كان متمسكا بدينه وثوابته القيمية قبل ابتلاء الشعوب الإسلامية ببلاء المستدمر الغاشم والذي أراد سلخنا عن هويتنا(5)، ولكن الله سلم وهذا بفضل رجال انبروا للذود عن الأمة وفي مختلف الأقطار الإسلامية؛ ورغم بعد المسافات وشساعة رقعة العالم الإسلامي إلا أن المنهج القرآني كان العامل المهم في توحيد الرؤى في كيفية التصدي للمسخ الاستعماري.

وللمنهج القرآني هذا أسس ومرتكزات يقوم عليها في اعتقادي وقد حصرتها في أربعة أسس هي:

أسس ومرتكزات المنهج القرآني في التغيير

لابد لكل عمل ذي بال ممنهج ومراد له النجاح من خصائص ومرتكزات تميزه عن غيره، ولقد كان لأفكار الإصلاحيين والمفكرين الذين تبنوا هذا المنهج أيضا خصائص تميز فكرتهم عن غيرها من الأفكار، ولكن هذا لا يمنع من وجود نقاط تقاطع أيضا في خصائص العمل الإصلاحي والدعوي المراد تنفيذه وهذا يرجع بالأساس الأول إلى الخصائص التي تشترك فيها الإنسانية كلها؛ فلا غرابة إن وجدنا دعوات إصلاحية مختلفة تشترك في بعض الخصائص، ولا يجب أن تكون هناك غرابة البتة إذا ما كانت هذه الحركات الإصلاحية ذات منطلقات ومصبات فكرية واحدة، وهي منطلقات ومصبات ذات روح إسلامية، وعليه فقد اشتركت فكرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مثلا، وفكرة جماعة الإخوان المسلمين، وفكرة مالك بن نبي كفرد وفكرة الجماعة الاسلامية في باكستان مثلا في الإنطلاق الحضاري والإصلاحي ـ والتي أردت أخذها كنماذج لتوضيح هذه الفكرة ـ قلت أشتركت في خصائص ومرتكزات عدة منها:

1ـ النظرة الشمولية:

فلقد كانت فكرة جمعية العلماء المسلمين الإصلاحية في الجزائر فكرة شاملة لمناحي الحياة كلها، فقد عملت في الجانب الإجتماعي وفي الجانب الثقافي وفي الجانب السياسي، وكذلك جماعة الإخوان المسلمين فقد كانت فكرتها قائمة على الشمولية وعدم التفريط في أي ناحية من نواحي العمل الممكن خوضه، فكانت تدعو إلى فهم شامل ومتكامل للإسلام وبأنه عقيدة وعبادة وأخلاق ونظام إجتماعي ودعوة وجهاد وهو دين ودولة، كما كانت ترى وجوب شمولية التربية والتنشئة الإجتماعية للفرد المسلم (تنشئة فكرية وعلمية وروحية إيمانية وأخلاقية سلوكية وحركية دعوية)(6)، كما كانت تدعو إلى شمولية الأهداف بداية من إهتمامها بالفرد مرورا بالأسرة ووصولا إلى تنشئة المجتمع تنشئة صالحة تستطيع من خلاله تحرير أراضي المسلمين فهي تسعى باختصار كما سبق وأن أشرت إلى تحيق أهداف الإسلام شاملة غير منقوصة، وهذا لا يتأتى لها بطبيعة الحال إلا باستخدام كل الوسائل الممكنة والمشروعة فلا تقتصر على إلقاء المواعظ والدروس الحماسية التي تلهب بها الجماهير المتعطشة للإسلام ولا على القوة التي قد تلقى بها في متاهات هي في غنى عنها وقد مس الشمول أيضا عندها حتى المكان فهي تحاول جاهدة أن توصل فكرتها إلى كل شبر من الأرض وأن لا يكون محصورا في جهة منها فقط، مستأنسة بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ الأنبياء: ١٠٧، وكذا الشمول في الزمان بأن لا يتوقف عملها في وقت من الأوقات، وأخيرا يعني الشمول عندها أيضا شمول الإنسان الذي هو مدار هذه الفكرة والمعول عليه في

إنجاحها، والمراد هو أن تشمل دعوتها كل الناس لقوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٨

وقد كانت الشمولية في فكر الأستاذ مالك بن نبي واضحة جلية فلقد تمكن مالك بن نبي رحمه الله من أن يحقق الفهم الشامل لمشكلات العالم الإسلامي مستوحيا ذلك من مرجعية الإسلام والواقع الإستعماري،فكان مشروعه لبنة أساسية في صياغة المشروع الحضاري الإسلامي، ونحن نرى نتائجه في الصحوة الإسلامية المعاصرة، فهو امتداد تاريخي على مستوى الأفكار في الحاضر(7).

لقد أراد أن يكون شاملا في فكره وفي تناوله لقضايا وهموم الوطن حسب المكان، فهو يتحدث عن المجتمع العربي والإسلامي بمحاولته لمعالجة المظاهر المرضية ومنها فهو يحاول نقل هذا العالم المتخلف إلى مصاف الدول الصانعة لمجد العالم والوصول بها إلى مستوى المشاركة في المسيرة العالمية، هذا الشمول في المكان الذي جعله يتحدث عن فلسطين بين الفينة والأخرى وعن هموم كل العالم العربي وما كان يعانيه من جهل وتخلف وانتشار الأفكار البالية فيه، لقد كان شموله في عالم الأفكار فهو يتكلم عن الثقافة مثلما يتكلم عن التاريخ وعلم الإجتماع والسياسة، يتكلم عن الشيخ الطاعن في السن وعن الشاب المتحمس المقبل على الدنيا.

2ـ النظرة العالمية

فالأستاذ مالك بن نبي يأتي ضمن قائمة رواد الإصلاح في العالم الإسلامي فقد جاء بأفكار عميقة لأجل النهوض الحضاري من خلال رؤية تنطلق من الإسلام متماشية مع روح العصر والعلم، فتركز جهده الفكري على القضايا الأساسية التي تشغل الإنسان المسلم أينما كان دون الإقتصار على قطر أو إقليم بعينه، لذلك جاءت أفكاره عابرة للحدود، وقافزة فوق حواجز الزمن، وفي إطار كلي بعيدا عن التجزئة والتفتيت، إنها النظرة العالمية في فكر الأستاذ مالك بن نبي.

لقد دأب مالك بن نبي في أفكاره أيضا مؤكدا على ضرورة خروج الفكر الإسلامي في حل مشكلات العالم الإسلامي من الخصوصيات المحلية ومن الذاتية المنغلقة إلى رحابة عالمية الدعوة والحضارة الإسلامية للمساهمة ليس في بناء المجتمع المسلم وحسب بل وفي بناء الحضارة الإنسانية كي يكون لبنة من لبناته، بل واللبنة الأساس فيها، فكان يرى رحمه الله أن عالمية الإسلام شرطها مقاومة القابلية للإستعمار وتصحيح مسار الحضارة الإنسانية مع وجوب إدراك أن قضية العالم الإسلامي هي قضية بناء حضارة بالأساس(8).

وإذا جئنا إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فها هو الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بشمولية وبعالمية فكره وبفهمه للإسلام ولمعاني الأخوة الإسلامية متمثلا في ذلك قول النبي ﷺ فيما يرويه عنه النعمان بن بشير d حين قال: قال رسول الله ﷺ "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"(9).

إنها وحدة الدين ووحدة اللسان، والتي يقول عنها الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله: "الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين وهي ثلة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان هذا الدين... فالأمة الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق وإن كثرت فيها دواعي التفرق ويأبى لها دينها وهو دين التوحيد إلا أن تكون موحدة"(10)، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام وطبيعة هذا الإستشهاد إلا من قبيل عالمية هذه المدرسة الإصلاحية البادیسية.

وعند جماعة الإخوان فهي من أهم موجبات و مرتكزات العمل عندهم كون الإسلام دينا عالميا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ الأعراف: ١٥٨، ولعالمية الأمة، فالأمة الإسلامية واحدة في الأرض جميعا لقوله تعالى﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ المؤمنون: ٥٢، ولعالمية أهداف الإسلام، ولعالمية المؤامرة على هذه الأمة، بالإضافة إلى أن أعباء العمل الإسلامي تفرض العالمية، فهذه مبررات الأخذ بمبدأ العالمية في عمل حركة الإخوان المسلمين، هنا نجد التقاطع واضح بين فكر هذه الجماعة وفكر الأستاذ مالك بن نبي حسب ما تقدم ذكره.

3ـ إيثار العمل على الدعاية والإعلام

لقد كان من خصائص حركة الإخوان المسلمين في مصر إيثار العمل والإنتاج على الدعاية الفارغة المستنزفة لطاقات الأمة الإسلامية وهذا خشية أن تصاب الأعمال بالرياء ولأجل عدم هدر الطاقات في دعاية مغرضة وإعلام زائف، ولذلك حققت ما حققت وفي ظرف وجيز.

لقد كانت دعوة الإخوان المسلمين رافضة لبعض أساليب وطرق الإصلاح مثلما كان الحال مع مالك بن نبي الذي ثار في وجه بعض هذه الأساليب في الجزائر آنذاك، وفي ذلك يقول الإمام حسن البنا: "أيها الشباب: يخطيء من يظن أن جماعة الإخوان المسلمين جمعة دراويش قد حصروا أنفسهم في دائرة ضيقة من العبادات الإسلامية... ولكنهم آمنوا به عقيدة وعبادة ووطنا وجنسية وخلقا ومادة وثقافة وقانونا وسماحة وقوة واعتقدوه نظاما كاملا يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة وينظم أمر الدنيا كما ينظم الآخرة"(11).

إن منهج حسن البنا في التربية والإصلاح والذي ابتعد فيه عن الدعاية المغرضة المضيعة للوقت والجهد قد أعطى ثمارًا ضخمة على أرض الواقع، حيث أنشأت الحركة مؤسسات إقتصادية وإجتماعية، وشاركوا في العمل الجهادي في فلسطين وحرب قناة السويس. كما أن تربية حسن البنا تطابقت مع منهج الإسلام وذلك سر نجاحها. وهذا عين ما كان يفكر فيه مالك بن نبي رحمه الله تعالى، ففي إحدى كتاباته يرسم لنا مالك بن نبي صورة لهذه الحالة المرضية، ففي الثلاثينيات من القرن الماضي ـ عندما كان مالك ما يزال صبيًّا ـ نجح المستعمرون في تحويل الشحنة الإيمانية إلى منابر كلامية، ويقول مالك واصفا أحد هذه المنابر: إن رجلا جزائريا طلب أن يتكلم وظل يصيح أريد أن أتكلم، وكلما اعتلى شخص آخر المنبر ظل يصيح صاحبنا: أريد أن أتكلم، وأخيرا سمحوا له أن يعتلي المنبر فصعد وفي يده مكنسة وهتف قائلا:

أريد أن "أكنس" الإستعمار من الجزائر كما أكنس التراب بهذه المكنسة، ثم هبط من المنبر ووجهه مطمئن باسم كله رضا، لقد قام بدوره في مقاومة الإستعمار بهذا المشهد، وحول الشحنة الإيمانية إلى شحنة كلامية ضاعت في الهواء، ولم يبقَ شيء نقدمه للأوطان في المعارك الحقيقية ولم يخرج الإستعمار إلا بعد أن تعافت الجزائر من هذه الحالة وأيقنت بأن خروج المستدمر الفرنسي يستحيل أن يكون بالمكنسة التي ذكرها صاحبنا، فكان قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴿١١﴾ ﴾ الرعد:١١، وقوله تعالى أيضا: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنفال: ٥٣ نقطة ارتكاز هامة في منظومته الفكرية(12)، وهو يذكر بذلك بالمثل العربي القائل: "حال رجل لألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل لرجل"؛ فليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي(13).

وحتى نعرف موقع مشروع مالك بن نبي من "مشروع" الحركة الإصلاحية لابد من عرض رؤيته لها وتقييمه لحصادها فبالرغم مما أقره مالك بن نبي للحركة الإصلاحية من تجديد للقيم الإسلامية، ومن إنجازات فكرية مهمة إلا أنه يسجل عدم استطاعتها المساس بأصل الداء وإقتصارها على الأعراض المرضية فحسب فبقيت في دائرة التشخيص بعيدة عن طرح البدائل فابتعدت في نظره عن البناء والتوجيه ببقائها مدافعة ومبررة لمذاهبها وأرائها مع حشد الأدلة لهذا التبرير أو ذاك وضاع بين هذه التبريرات وتلك الحجج حلم سماه مالك بن نبي حلم الحضارة(14).

لم تكن للحركة الإصلاحية قديما نظرة شاملة لمشاكل العالم الإسلامي، فذهب كل مصلح إلى وصف الوضع الراهن تبعاً لرأيه أو مزاجه أو مهنته وتخصصه. فرأى رجل سياسي كجمال الدين الأفغاني أن المشكلة سياسية تحل بوسائل سياسية، بينما قد رأى رجل دين كالشيخ محمد عبده أن المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ... الخ، على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه.

إن ما ينقص الفرد المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً، بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط ولكنهم لا يفعلون في الغالب.

4ـ الإنسان أساس التغيير

فلإنجاح التغيير المنشود وفق المنهج القرآني؛ يجب أن نحققه أولاً في أنفسنا وإلا فإن الفرد المسلم لن يستطيع إنقاذ نفسه فما بالك بإنقاذ مجتمعه ومن ثم أمته، فالتغيير يقتضي تغيير ما في النفوس أولاً، لقوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴿١١﴾ ﴾ الرعد: ١١، ولقوله تعالى أيضا: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنفال: ٥٣، فيجب على الفرد المسلم أن يحقق شروطاً ثلاثة في اعتقادي وهي:

1. أن يعرف نفسه.
2. أن يعرف الآخرين، وأن لا يتعالى عليهم وأن لا يتجاهلهم.
3. ويجب عليه في الشرط الثالث أن يعرِّف الآخرين بنفسه وبصورة محببة، صورة يقول عنها الأستاذ مالك بن نبي: "تلك الصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للإستعمار والتخلف وأصناف التقهقر".

وفي المقابل كانت جماعة الإخوان المسلمين تربي أبناءها والمنتمين إليها على مبدأ: [أعرف ربك وأصلح نفسك وأدعو غيرك][15].

فالفرد هنا عند مالك بن نبي وعند حسن البنا هو الهدف وهو نقطة البدء في التغيير والبناء والحل الوحيد منوط بتكوين الفرد الحامل لرسالة ومستغنيا بفكرة[16]، وعلى هذا الفرد أن يقدم الواجب قبل أن يطالب بالحقوق، فأداء الواجب هو الكفيل الوحيد بالحصول على الحقوق، فإذا أردت أن تصلح أمر الدولة أصلح نفسك[17].

أخيرا نقول بأن أتباع المنهج القرآني في التغيير ولرفع التحديات المعاصرة وجب أن يؤمنوا بالمرحلية في العمل الإسلامي وهي التدرج بداية من رسم الأهداف المراد تحقيقها؛ فلا يمكن أن نزرع حقلا كبيرا ببذرة واحدة بل يجب أن نسدد ونقارب كما أمرنا النبي ﷺ، مع التدرج في خطوات تحقيق هذه الأهداف دون حرق للأشواط، وهذا تأسيسا لما يسمى بسياسة النفس الطويل، وهذا لتحقيق الأهداف والتي طريق تحقيقها شاق وطويل ولا يتأتى هذا إلا بالوقوف ضد التهور وحرق الأشواط من قبل أتباع هذا المنهج (المنهج القرآني) متمثلين في ذلك قول النبي ﷺ: "إن المنبت لا أرضا قطع و لا ظهرا أبقى"[18].

الهوامش:

[1]) محمد محمد عبدالقادر الخطيب.دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية. (القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، 1990م)، ص 1، 2.

[2]) محمد قطب.جاهلية القرن العشرين.، ط12، (القاهرة: دار الشروق، 1992م)، ص 273.

[3]) سورة الشرح؛ الأية: 7/ 8.

[4]) محمد الراشد. القرآن وتحديات العصر. ط1؛ (دكشق: دار الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، 2002م)؛ ص 35.

[5]) المرجع السابق نفسه، ص 41 ومابعدها.

[6]) مازن فروخ. ثوابت العمل الاسلامي عند الإمام الشهيد حسن البنا. ط1، (بيروت: المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، 1406هـ/ 1986م).ص:46 وما بعدها.

[7]) طه جابر العلواني."مالك بن نبي وحركة التجديد الحضاري" .الشروق الثقافي، ملحق جريدة الشروق العربي، العدد 15،ص:24.

[8]) أسعد السحمراني. مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا. ط2، (بيروت: دار النفائس، 1986م)، ص 136.

[9]) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب برقم:4685.

[10]) من مقال للشيخ البشير الإبراهيمي نشر بجريدة السنة العدد الرابع يوم: 6 محرم 1352هـ/ 1933م، أنظر/ آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج3، ص: 107.

[11]) حسن البنا .مجموعة الرسائل.ج2، (الجزائر: مكتبة رحاب)، ص:125.

[12]) جودت سعيد .حتى يغيروا ما بأنفسهم.ط1، (الجزائر: المطبعة العربية،1990م)، ص:11 وما بعدها.

[13]) مالك بن نبي .وجهة العالم الإسلامي. ط ، (دمشق: دار الفكر)، ص 73

[14]) محمد أبو القاسم حاج محمد.مناهج التغيير والحركات الإسلامية. بحوث ندوة مناهج التغيير في الفكر الإسلامي المعاصر المنعقد في دولة الكويت (من 24 الى 62 يناير 1994م) ص: 367. و أيضا: مالك بن بني.وجهة العالم الإسلامي.ترجمة : عبد الصبور شاهين ، (دمشق: دار الفكر)، ص:60 وما بعدها.

[15]) مصطفى مشهور.طريق الدعوة. دار الإرشاد، سنة: 1399هـ/ 1979م،ص:136 و ما بعدها.

[16]) مازن فروخ. ثوابت العمل الإسلامي عند الإمام الشهيد حسن البنا. مرجع سابق ، ص: 21.

[17]) جودت سعيد.مذهب ابن آدم الأول. ط1، (الجزائر: المطبعة العربية، 1990م)،ص: 14وما بعدها.

[18]) أخرجه البزار كما في كشف الأستار 1 / 57أ والبيهقي في السنن 1 / 19أ والشعب برقم : 3886أ وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث وثقه جماعة وضعفه آخرون.